الحرب
بين عرابى والإنجليز

بين الخديو وعرابى

تربص الإنجليز فى الإسكندرية حتى يعدوا العدة للزحف، ويتلقوا الإمداد التى جاءتهم بعد ذلك من إنجلترا، وأخذوا فى الأيام الأولى ينظمون الاحتلال مستعينين بالخديو ونفوذه الشرعى. وذاع الأميرال سيمور يوم ١٧ يوليه منشورا بالمحافظة على الأمن علق فى شوارع المدينة، وهو منشورا اعلن الإنجليز فيه أنهم مكلفون من جانب الخديو بالمحافظة على النظام.

واستكتب الأميرال سيمور راغب باشا رئيس مجلس الوزراء خطابا بتاريخ ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ يبلغ فى الأميرال مخالفة عرابى لأوامر الخديو فيما يقوم به من وسائل الدفاع، وعزم الخديو على عزله من منصبه.. وهذا الخطاب يبدو غريبا من راغب باشا الذى كان حتى ضرب الإسكندرية يعضد العرابيين ويؤيدهم، ويقاوم التدخل البريطانى، والخطاب يناقض أيضا قرار مجلس الوزراء اشتراد راغب باشا فى وضعه بوصفه رئيسا للنظار والذى رد فيه على إنذار الأميرال سيمور قبيل ضرب الإسكندرية. وأرسل الخديو من سراى رأس التين يوم ١٧ يوليه تلغرافا إلى عرابى بكفر الدوار يأمره فيه بالكف عن الاستعدادت الحربية ويحمله تبعة ضرب الإسكندرية. ويدافع فيه عن حسن مقاصد الإنجليز ويأمره بالحضور إلى سراى رأس التين ليتلقى منه تعليماته.

فأجاب عرابى على هذه الرسالة ببرقية شرح فيها وجهة نظره، وأبان الأسباب التى توجب استمرار الدفاع، وهى طلبات الأميرال سيمور، وقرار مجلس الوزراء برياسة الخديو برفضها ولو أدى ذلك إلى القتال، واعتذر عن

الحضـور إلى الإسكندرية لأن الإنجليز يحـتلونها، وطلب إلى الخـدو أن يوفد إليه الوزراء أو رئيسهم فى مركز الجيش بكفر الدوار للمداولة فى الموقف. ولما تحقق عرابى انحياز الخديو إلى جـانب الإنجليز خشى أن يصدر من الأوامر ما يشل حـركة الاسـتـعدادات الحـربيـة، فـأرسل عرابى إلى جـمـيع المديريات والمحافظات تلغـرافات شديدة اللهجـة اتهم فيها الخديو بمـالأة الإنجليز وحذر الجميع من اتباع أوامره التى تخالف حالة الحرب.

وأرسل إلى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية بالقاهرة كتابا بتاريخ ١٧ يوليه سنـة ١٨٨٢، دعا إلى وجوب عـقد جمـعية عـمومـية من الذوات والأعيـان والعلماء يعـرض عليها الموقف ويطلب مـنها إصدار قـرار فى شأن الخديو وفيمـا يجب عمله لصالح الأمة "وصلاحية مـثل هذا الوالى عليها"، وختم كتابة بالمثابرة على التجهـيزات الحربية وأنه تحرر بذلك إلى جميع حكام البلاد..

وأذاع منشـورا أرسله إلى المديريات والدواوين كـافـة بإعـلان انضمـام الخديو إلى جانب الإنجليز وخلع طاعته.

كان يعقوب سـامى باشا من الموالين لعرابى، كما كان فى خـاصة نفسه يرى بحق وجوب الدفـاع عن البلاد إزاء عدوان الإنجليز.. فلمـا جاء تلغراف عرابى اجـتمع يوم وروده مع خاصـته المناصـرين له فى وزارة الحربية "قـصر النيل" واستقـر رأيهم على عقد مجلس بديوان وزارة الداخليـة فى مساء ذلك اليوم مؤلف من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين.

فـاجتـمع المجلس المـذكور وقـرر دعـوة العلمـاء والأعيـان والرؤسـاء الروحانيـين والوجهاء وكـبار موظفى الحكومـة بديوان الداخلية ليلا فى هيـئة

جمعية عمومية لاتخاذ ما يلزم من القرارات بالنيابة عن الأمة. وأخذ هذا المجلس يتولى سلطة الحكم.. وظل كذلك خلال الحرب، وقد سمى الوقائع المصرية "المجلس العرفى" وسنجرى على هذه التسمية الأخيرة فى سياق الحديث.

وفى مساء يوم الإثنين ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ اجتمع المدعوون إلى حضور الجمعية العمومية بوزارة الداخلية وبلغ عددهم أربعمائة عضو، منهم الأمراء الموجودون بالعاصمة وشيخ الإسلام وقاضى قضاة مصر ومفتى الديار المصرية وكبار العلماء والرؤساء الروحانيون والنواب ووكلاء الدواوين والمديرون والقضاة والتجار والأعيان.

وعرضت عليهم الرسائل التى تبودلت بين الخديو وعرابى، وبين هذا الأخير ووكيل الحربية، وتداولوا فى الموقف.. فأجمعوا على وجوب مداومة الاستعدادت الحربية ما دامت بوارج الإنجليز فى السواحل وجنودهم فى الإسكندرية، وعلى الأمر، واصدورا قرارا بهذا المعنى..

وعلى أثر إطلاع الخديو على قرار الجمعية العمومية أصدر أمرا فى ٢٠ يوليه سنة ١٨٨٢ بعزل عرابى من وزارة الحربية وعين عمر باشا لطفى الإسكندرية بدلا عنه وبنى أمر العزل على مخالفة عرابى لأوامره ومداومته على الاستعدادات الحربية، وقد صار هذا الأمر بناء على قرار من مجلس الوزراء، وكان بعضهم مخالفا لفكرة العزل، ولكن الخديو أصر عليها، وأبلغه هذا الأمر فى كتاب بعث به إليه.

وأذاع الخديو فى الوقت نفسه منشورا علق فى شوارع الإسكندرية فصل فيه الأسباب التى دعت إلى عزل عرابى من منصبه، وأخذ فيه على عرابى

إخـلاء الإسكندرية دون مـقاومـة، ثم دافع عن نيـات الإنجليـز واحتـلالهم الإسكندرية وسوغه بأن الغرض منه المحافظة على الأمن!

وكان عـرابى مرابطا فى معسكـره بكفر الدوار حين أصدر الخـديو أمره بعزله من منصبه، فلم يكترث له واستمر يعد عدة الدفاع ليصد تقدم الإنجليز، وأرسل إلى يعقوب سامى باشـا يدعوه إلى عقد الجمعية العمـومية ثانية للنظر فى أمر العزل. . فقرر المجـلس العرفى دعوة الجمعية العمـومية إلى الانعقاد، واجتمعت بوزارة الداخليـة يوم السبت ٢٣ يوليه سنة ١٨٨٢، وهذه هى المرة الثانية لاجتماعها، ولم تجتـمع بعد ذلك، الحاضرون فى المرة الثانية أكثر عددا من المرة الأولى إذ حـضرها نحـو خمـسمـائة من الأعضـاء، منهم ثلاثة من الأمراء، وشيخ الأزهر وقاضى قضاة مصر ومـفتيها ونقيب الأشراف وبطريرك الأقباط الأرثوذكـس، وحاخام اليهود، والنـواب والقضاة والمفتـشون ومديور المديريات والأعيان وكـثير من العمد ومشايـخ البلاد، فلما اجتمعت الجـمعية تليت عليهـا الأوامر الصادرة من الخـديو، والمنشورات التى أصـدرها عرابى، وتولى هذه التلاوة الشيخ مـحمد عبده (الاستاذ الإمـام) بناء على أمر حسين باشـا الدرمللى وكيل الداخليـة، وألقى على باشـا الروبى خطبة تناول فـيهـا الخديو بالطعن والقدح، وتلبيت فتوى شرعية من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العـدوى والشيخ مـحمد أبـو العلاء الحلفاوى بمروق الخـديو من الدين لانحيـازه إلى الجيش المحـارب للبلاد. وتداول الأعـضاء فى الموقـف الحربى وفيـما يجب عمله، فـاتفقت آراؤهم على عدم قـبول عزل عـرابى، وبعد أن صدر هذا القرار قال يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية: "حيث قرر هذا المجلس المحترم عدم عزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية أن يرى رأيه

فى أوامره الخديو التى تصدر إلى من جنابه، وكذلك ما يصدر من حضرات نظارة المقيمين معه هل يلزمنى قبولها وتنفيذها أم لا؟" فتداولت الجمعية العمومية فى هذه المسألة وأصدرت قرارها بوقف أوامر الخديو ونظاره وعدم تنفيذها.

الحرب بين العرابيين والإنجليز

عسكر عرابى بجيشه فى كفر الدوار وأقام بها الاستحكامات المنيعة، وأخذت طلائع العرابيين تناوش الإنجليز فى ضواحى الإسكندرية.. ولم يكن الجيش الإنجليزى قد أمن بعد على مركزه فى الثغر، بل كان يتوقع أن يهاجمه العرابيون بعد أن يلموا شعثهم عقب الهزيمة الأولى، فأخذ الإنجليز يحصنون استحكامات المدينة ووضعوا الحرس على مداخلها.

وكانت طلائع المصريين ترابط فى الرمل وتستعد لمناوشة الأعداء.. واستمر الإنجليز يلزمون خطة الدفاع فى الإسكندرية وينتظرون وصول الأمداد. وفى ١٧ يوليه جاءهم مدد من ٢٧٠٠ مقاتل، وجاء الإسكندرية الجنرال جاءهم مدد من ٢٧٠٠ مقاتل، وجاء الإسكندرية الجنرال اليزون Ali-son فتولى قيادة الجيش البريطانى فى المدينة حتى يحضر القائد العام الجنرال ولسلى. وكان عدد الجيش البريطانى فى الإسكندرية ٣٦٨٦ مقاتلا - عدا جنود الأسطول - ثم جاءهم مدد آخر عدده ١١٠٨ من مالطا، وجبل طارق.. فاحتل الإنجليز الرمل فى ٢٣ يوليه، ثم أخذ المدد الأكبر يتحرك من ميناء ولوتش Woolwich بإنجلترا فى أواخر يوليه قاصدا مصر. وأصدرت الملكة فيكتوريا أمرا فى ٢١ يوليه بتعيين الجنرال السير جارنت ولسلى Garnet Sir Wolsley قائدا عاما لجيش الحملة على مصر ولم يصل إلى الإسكندرية إلا فى منتصف أغسطس.

وكان المظنون لدى عرابى وصحبه أن لا يتخذ الإنجليز قناة السويس ميدنا للزحف أو للحركات الحربية، احتراما لحيدة القناة.. ولكن العارفين بالحقائق كانوا على يقين من أنهم لا يرعون للقناة حرمة، كما لم يرعوا حرمة المعاهدات فى ضربهم الإسكندرية، فكانت خطتهم أن يهاجموا مصر من ناحية الإسماعيلية متجهين من طريق الزقازيق إلى القاهرة

خطة العرابيين فى القتال

عين عرابى محمود باشا فهمى رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى عقب ضرب الإسكندرية، فوضع خطة سديدة للدفاع عن البلاد لو اتبعت بإحكام لصدت تقدم الإنجليز وأنقذت المهندسين الحربيين، وخلاصة خطته أنه عين خمسة مواقع رئيسية للدفاع: الأول فى كفر الدوار، والثانى فى رشيد، والثالث بين رشيد وبحيرة البرلس، والرابع فى دمياط، والخامس فى الصاحلية والتل الكبير لصد الهجوم بسد ترعة الإسماعيلية لمنع وصول المياه العذبة إلى بورسعيد والإسماعيلية والسويس وسد قناة السويس ذاتها لمنع الإنجليز من اتخاذها قاعدة عسكرية.

ولو سدت قناة السويس فى بداية القتال لامتنع الاتصال بين القوات الإنجليزية الآتية من البحر الأبيض المتوسط والقوات الآتية من الهند. واستحال عليها الوصول إلى الإسماعيلية من طريق القناة، وفى هذه الحالة يضطر الجنرال ولسلى إلى المغامرة بجيشه فى الصحراء الشرقية حيث لا ماء ولا كلأ، أو يهاجم مصر من طريق الدلتا فتعوق الترع والجسور زحفه وخاصة فى أيام الفيضان (أغسطس - سبتمبر)، ولكن عرابى لم يستمع لنصيحة محمود باشا فهمى وخشى عواقبها. وظن أن الإنجليز يحترمون حياد القناة فلا يتخذونها

قاعدة للزحف، فكان هذا الخطأ أكبر عامل فى إخفاق خطة الدفاع التى وضعها محمود فهمى، واكتفى عرابى بإقامة معسكر فى التل الكبير على بعد نحو خمسين كيلو مترا من الإسماعيلية و ١١٠ كليو مترات من القاهرة حشد فيه جانبا من الجيش، ولكنه وزع معظم قواته فى كفر الدوار وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط. . فكان الجنود السودانيون وهم من خيرة الجنود مراطبين فى دمياط بقيادة عبد العال حلمى. ورابط فى وشيد فيلق كبير، واستقر معظم الجيش بقيادة طلبة عصمت فى كفر الدوار، ومع أن الإنجليز استعجلوا الحركات العدائية فى قناة السويس وكانت هذه الحركات نذيرا كافيا لعرابى بما اعتزموه من خرق حياد القناة، فإن عرابى جبن عن العمل بنصيحة محمود فهمى فى سدها.

ولقد بكر الإنجليز فى خرق حرمة قناة السويس واتخاذها ميدانا للحركات العدائية. . وتدل الظروف والملابسات على أنهم كانوا مصرين على اختلاف الذرائع لاحتلالها، كما اختلقوها لضرب الإسكندرية. فقد تعللوا بأن ثمة ترميمات تجرى فى طابية "الجميل" على مدخل بحيرة المنزلة غربى بورسعيد. وأصدرت الحكومة البريطانية فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٨٢ تعليماتها إلى الأميرال سيمور بإحتلال بورسعيد والإسماعيلية. وفى ٢٦ يوليه سنة ١٨٨٢ اقتحمت السفينة الحربية الإنجليزية "أوريون" بقيادة الكبتن "فتزورى"، القناة عند بورسعيد، وألقت مراسيها يوم ٢٢٧ منه فى بحيرة التمساح على بعد ثمانمائة متر من الإسماعيلية. ولم يكد يمضى على دخولها القناة يومان حتى وصل الأميرال "هويت" إلى السويس والأميرال "هوبكنس" إلى بورسعيد، واستقر كل منهما فى موقفه ينتظر التعليمات الخاصة باحتلال القناة. .

وهذه الحركات الحربية المبكرة فى ناحية القناة كانت تنم عما اعتزمه الإنجليز فى بداية القتال من الزحف من طريق قناة السويس. . ولكن عرابى مع ذلك ظل غافلا عن هذه النية!

واحتل الإنجليز مدينة السويس فى ٢ اغسطس، وظل عرابى برغم احتلالها يعتقد حرمة قناة السويس بحجة أن القناة إنما تبتدئ من "بور توفيق" ضاحية السويس - والتى لا تبعد عنها إلا بثلاثة كيلو مترات - وكان احتلال السويس نذيرا آخر باتخاذ الإنجليز لها قاعدة للزحف على العاصمة، وقد تحرك المدد من الهند بعد سبعة أيام من احتلالها.

وقائع الميدان الغربى

تقصد بالميدان الغربى ما بين الإسكندرية وكفر الدوار. . تمييزا له عن الميدان الشرقى من الإسماعيلية إلى التل الكبير لقد وجه عرابى كل عنايته إلى تحصين مواقعه فى الميدان الغربى، وأهمل الميدان الشرقى إهمالا تاما، مما كان السبب الأكبر فى الهزيمة. . فأنشأ الاستحكامات المنيعة فى مواقع أبو قير وملاحة مريوط. ووضع محمود باشا فهمى تصميم هذه الوقائع بمعاونة الأميرالاى محمد بك شكرى وهو من أكفأ ضباط أركان حرب الجيش المصرى. . فكانت مؤلفة من ثلاثة خطوط للدفاع يبعد كل واحد عما يليه بأربعة أو خمسة كيلو مترات، وأمام كل خط خندق عمقه عشرة قدما، وأقيمت المعاقل على جميع المرتفعات والآكام، وركبت فيها المدافع وعددها خمسون مدفعا.

وقعة الرمل

تحرك الإنجليز يوم السبت ٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ يريدون التقدم من جهة "الرمل" بأورطتين من المشاة وأورطتين من الفرسان. . فلما صاروا على بعد ألف وخمسمائة متر من موق المصريين التقى بهم البكباشى أحمد أفندى البيار والبكباشى مصطفى أفندى حسان ومعهما أورطتان من المشاة وأورطتان من الفرسان، وصدوهم عن التقدم. . ثم جاء خورشيد باشا طاهر قومندان خط الدفاع فى أبو قير ومعه ثلاثة بلوكات من الفرسان، فهجم المصريون على الإنجليز هجوما شديدا واضطروهم إلى التقهقر إذ ولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصفا. .

ويقول الكولونل "سبتان" عن هذه المعركة أن الجنرال "أليزون" كان يقود الإنجليز فيها وأن عددهم كان ألفى مقاتل وأن الجنرال "أليزون" كان لا يفتأ يناوش العرابيين حول الإسكندرية كل يوم لكى يوهمهم أن الجيش البريطانى قد اتخذ الإسكندرية قاعدة للزحف، فى حين أن خطته الحقيقية هى الزحف من ناحية الإسماعيلية. وبذلك يشغلهم عن تحصين التل الكبير ومواقع الدفاع فى الشرق.

وقعة عزبة خورشيد

وهاجم الإنجليز مقدمة الجيش المصرى فى كفر الدوار يوم ٧ أغسطس إذ تقدم جناحهم الأيسر من الرمل على جسر ترعة المحمودية وتقدم الجناح الأيمن بطريق السكة الحديد من القبارى. . وجاء القلب من طريق كوبرى المحمودية، فلما التقوا بالمصريين وصمد هؤلاء لقتالهم ودوافعهم دفاعا مجيدا، إذ انبرى للميسرة البكباشى محروس أفندى يقود أورطته وأبلى فى

قتالهم بلاء حسنا، وجرح أثناء المعركة. ومصد للقلب والميسرة البكباشى محمد أفندى فودة ومعه أورطة أخرى من الجنود، واشتد القتال فى هذه الناحية واستمرت المعركة نح أربع ساعات انتهت بتقهقر الإنجليز منهزمين، وسار المصريون على أثرهم حتى حجبهم الظلام عنهم.. وقتل من المصريين فى هذه الوقعة تسعة من الجنود وصف الضباط وضابط واحد وجرح منهم اثنا عشر جنديا وضابطان.. أما خسائر الإنجليز فكانت أكثر عددا من خسائر المصريين.

الاستعداد للمعارك الكبرى

وبعد وقوع معركتى ٥و٧ أغسطس سنة ١٨٨٢ المتقدم ذكرهما، استمر ورود الإمداد إلى الإنجليز فى الإسكندرية آتية من مالطة وقبرص وجبل طارق وإنجلترا.. فاجتمع حوالى ٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ فى المدينة وضواحيها نحو أربعة عشر ألفا من المشاة وثلاث فصائل من الفرسان و٩٤٠ جنديا من المدفعية و٥٤٠ من المهندسين وكثير من القائمين على خدمة الجسور والتلغراف والسكك الحديدية. وظل المدد يرد على الإسكندرية والسويس حتى بلغ عدد الجيش البريطانى قبيل معركة التل الكبير ٥٠٦٠٠ مقاتل.

أما الجيش المصرى النظامى فلم يكن على ١٩٠٠٠ مقاتل موزعين بين مختلف المواقع، منهم ٨٠٠٠ فى كفر فى دمياط، وقد انضم إلى هذا الجيش عدد من المتطوعين والعربان، ولكن الوقت لم يكن يسمح بتدريبهم على الحركات النظامية، فلم يكن منهم فائدة، ويقول جون نينيه الذى شهد هذه الحوادث: "أن وجود جموع العربان من مشاة وركبان فى كفر الدوار لم يكن له فائدة ما للجيش بل كان النظامية". وقال المستر بلنت: "إن الجيش المصرى بأكمله كفر الدوار، أما المجندون الجدد فلم يكونوا بعد أكفاء للقتال".

ويقول جون نينيه أيضا: "إن الصحف الإنجليزية كانت تبالغ فى عدد الجيش المصرى بكفر الدوار وتبلغه إلى ٤٧٠٠٠ مقاتل على حين أنه دون هذا العدد بكثير".

فالإحصاء الصحيح هو ما ذكره جون نينيه، وفى الحق أن الوقت لم يكن يتسع لزيادة عدجد الجيش إلى أكثر من هذه العدد، فقد كان سنة ١٨٨١ لا يزيد على ١١٣٠٠ جندى (عدا الجنود المرابطة فى السودان) ثم زيد نظريا فى سنة ١٨٨٢ إلى ١٧٧٠٠، لكن عدده الحقيقى كان أقل من ذلك كثيرا.

ويقول عرابى فى مذكراته: "إن الجيش المصرى عند ابتداء القتال كان مؤلفا من ثمانية ألايات من المشاة، وثلاثة ألايات من الفرسان، وألايين من الطوبجية البرية، وثلاثة ألايات من طوبجية السواحل - المنوط بهم حماية الثغور - وفرقة من رجال الهندسة، وأن مجموع ذلك فى حالة استكمال الفراق والألايات ٣٦٠٠٠" هو إحصاء نظرى لا يمكن التعويل عليه لأ ن المعروف أن الفرق والألايات لم تستكمل قط عددها، بل كان بعضها لا يبلغ نصف عدده الرسمى.

والظاهر أن عرابى كان يميل بعد هزيمة التل الكبير وفى خلال محاكمته إلى المبالغة فى عدد الجيش المصرى لكى يتخذ الدفاع عنه من ذلك دليلا على رغبته فى حقن الدماء مع وجود العدد الوافر لديه من الجند لاستمرار القتال، وسجل عرابى فى مذكراته أنه كان بالقاهرة قبل ابتداء القتال مصنع للأسلحة، ومعمل للبارود، وآخر فى بولاق لصب مصنع الأسلحة، ومعمل للبارود، وآخر فى بولاق لصب المدافع، ودار صناعة عظيمة لعمل البنادق والمدافع أنشئت فى طرة.. ولكنها لم تكمل قبل نشوب الحرب.

يتضح لك من هذا البيان أن عدد الجيش الإنجليزى كان يزيد على ضعف عدد الجيش المصرى.. وهذا وحده كان نذيرا بسوء العاقبة. وقد جعل الفريق راشد باشا حسنى قائدا لخطوط الدفاع فى الشرق، وخورشيد باشا طاهر على رشيد وأبو قير، وعلى باشا الروبى على مريوط، وعبد العال باشا حلمى على دمياط، ومحمود سامى باشا البارودى قائدا لمواقع الصالحية، وطلبة باشا عصمت قائدا لفرقة كفر الدوار أمرة عرابى.

واعتزم عرابى زيادة عدد الجيش، فرأى أن أقرب الوسائل إلى هذه الزيادة تجنيد الخفراء فى سائر المديريات لمرانهم على الحركات العسكرية من قبل، فأصدر منشورا فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨٢ بتجنيد ٢٥ الفا يؤخذون من الخفراء ويحل محلهم غيرهم فى المحافظة على الأمن، ووزع هذا العدد على المديريات كافة، وأرسل إلى المديرين يستحثهم على سرعة تجنيد هذا العدد، وبين حاجة الدفاع إلى ذلك.

ولاشك فى أنه لو كان لدى مصر الوقت الكافى لجندت هذا العدد وأكثر منه.. ولكن الوقت لم يكن يتسع لتجنيد الخمسة والعشرين ألفا ولا غيرهم، ويقول نيثيه: "إنه كان مقاتل أو ستين ألفا، فقد كان يشرف على حركة التجنيد يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية وكان كفوا فى الإدارة، ولكن الوقت لم يتسع لهذا العمل"

ولما نشبت الحرب لم يكن فى خزانة الحكومة مال، لأن السير كلفن المراقب المالى الإنجليزى أخذ الأموال الموجودة فى خزانة المالية وأنزلها بالأسطول الإنجليزى، قبل إعلان الحرب بأيام. وكذلك الأموال الموجودة بصندوق الدين حملها أعضاء القومسيون إلى السفن الحربية بالإسكندرية،

فأرسل عرابى إلى المديرين يدعوهم إلى جمع الأموال والإعانات من مديرياتهم للجيش، وحرر من المجلس العرفى للمديريات بتحصيل الأموال من الأهالى بنسبة عشرة قروش عن كل فدان على أن تحسب الأموال لمن يدفعونها من ضرائب الأطيان التى تستحق عليهم فى المستقبل.

وتطوع الكثيرون فى الجيش جنودا مقاتلين يجودون بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن الوطن. وبدأت حركة التطوع فى القاهرة والأقاليم عقب ضرب الإسكندرية والحق أن الأهلين قد تطوعوا لإمداد الجيش بكل ما يستطيعون من نفس ومال وغلال وعتاد ومؤونه وميرة وخيول وماشية، وجادوا بكل ما فى مقدورهم معتقدين بحق أن هذا واجب تفرضه عليهم الوطنية والدين.

قلنا أن الحكومة البريطانية عهدت بقيادة جيش الحملة على مصر إلى الجنرال السير "جارنت ولسلى" أحد القواد الأرلنديين فى الجيش البريطانى.. فوصل إلى الإسكندرية يوم ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٢,

لم يكن الجنرال ولسلى من القواد الذين اشتهروا بالكفاية العالية فى القيادة، ولا ممن امتازوا فى معارك سابقة بالنبوغ فى الفنون الحربية.. بل كل ما عرف عنه أنه اشترك من قبل فى حرب القرم ومن بعض الحملات الاستعمارية الإنجليزية. وكان لم يزل برتبة قائم مقام جنرال حين تولى قيادة الحملة على مصر سنة ١٨٨٢، فلما انتهت بهزيمة العرابيين فى التل الكبير واحتلال العاصمة انهالت عليه ألقاب الشرف والتكريم، فنال لقب لورد "فيكونت" ولسلى أوف كيرو "القاهرة" ورتبة جنرال وغير ذلك من دلائل التقدير، على أنه تولى فيما بعد - سنة ١٨٨٤ الحملة على قوات المهدى فى دنقلة، فأنتهت بأخفاقها ومقتل غردون باشا، وتولى سنة ١٩٠٣ قيادة الجيش

الإنجليزى فى حرب البوير بالترنسفال، فباء بالهزيمة والخسران. . وعدته حكومته مسئولا عن النكبة التى حلت بالجيش الإنجليزى، فنحته عن قيادته وعينت بدله الجنرال اللورد روبرتس.

من هذا البيان يتضح لك أن قيادة الجيش الإنجليزى وذات الجيش الإنجليزى الذى هاجم مصر سنة ١٨٨٢ لم يكونا كافيين للظفر بها واحتلالها، لولا الإنقسام الذى أضعف قوة الدفاع عنها. . فانسل الإنجليز فى أرض معبدة، ولم يلقوا المقاومة التى لقيها الجنرال "فريزر" حين نزل الإسكندرية سنة ١٨٠٧ على رأس جيش بريطانى آراد احتلال مصر فباء بالخيبة والخسران. .

ولم يكد يستقر بالجنرال ولسلى المقام فى الإسكندرية حتى أذاع الإعلان الآتى فى المدينة:

"بأمر الحضرة الخديوية - إعلان للمصريين - يعلن الجنرال قائد الجيوش الإنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى إرسالها تجريدة عسكرية إلى القطر المصرى ليست إلا لتأييد سطلة الحضرة الخديوية، وعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه. . فعموم الأهالى الذين فى وسلم وسكينة تصير معاملتهم بكل تودد وإنسانية ولا يحصل لهم أدنى ضرر بل يحترم دينهم وجوامعهم وعائلاتهم، والأشياء التى تلزم الجيش يصير دفع ثمنها، وعليه ندعو الأهالى لتقديم ذلك، وأن الجنرال قائد الجيش يسير جدا من زيادة مشايخ البلاد وخلافهم الذين يودون المساعدة لردع العصيان الذى هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالى الشرعى على القطر المصرى المعين من لدن الذات الشاهانية"

تجدد القتال

بدأت الحركات الحربية بين الإسكندرية وكفر الدوار عقب احتلال الإسكندرية كما تقدم بيانه، ثم تجددت عقب حضور الجنرال ولسلى. . ففى يوم السب ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ تحركت قوة كبيرة من الإنجليز جاء جانب منهم بالقطارات المسلحة من جهة القبارى وجانب آخر من جه الرمل ومحطة السيوف وحجر النواتية. فلما وصلت القطارات إلى مقدمة الجيش المصرى أطلق اليوزباشى أحمد أفندى فضلى مدفعا فكان ذلك إيذانا ببدء القتال.

ودارت معركة شديدة بينهم وبين المصريين، قصدهم المصريون عن التقدم بعد أن كبدوهم خسائر جمة. ودام القتال ثلاث ساعات حتى غروب الشمس. وكان يتولى قيادة الجيش فى هذه المعركة طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه رضا باشا ومصطفى بك عبد الرحيم وعبد بك محمد وأحمد بك عبد الغفار والقائمقام أحمد بك عفت والقائمقام سليمان سامى داود وبدوى بك حكمدار المدفعية، وانتهت المعركة بارتداد الإنجليز إلى الإسكندرية.

وفى أيام ٢٠ و٢١ و٢٢ أغسطس هاجم الإنجليز مواقع الجيش المصرى فى كفر الدوار، فدافع عنها المصريون خير دفاع، وانحلت هذه المعارك عن ارتداد الجيش الإنجليزى مواقع الجيش المصرى فى كفر الدوار، فدافع عنها المصريون خير دفاع، وانحلت هذه المعارك عن ارتداد الجيش الإنجليزى وتعتبر معارك الميدان الغربى فى جملتها فوزا للعرابيين، لأن الإنجليز ارتدوا عن خطوط الدفاع فى كفر الدوار.

فى الميدان الشرقى

تقدم القول بأن عرابى أهمل الدفاع عن البلاد من ناحية الشرق، فلما جاء الجنرال ولسلى الإسكندرية كان أول عمل حربى له هو تدبير الزحف على العاصمة من ناحية قناة سد القناة لعجز الجنرال ولسلى عن الوصول بجيشه إلى الإسماعيلية واتخاذها قاعدة للحزف، وكلنه لم يفعل.. فكان احجامه وبالا على مصر. وقد لعب المسيو فرديناند دلسبس فى هذه المسألة دور الخداع والتغرير لكى يفوت على العرابيين سد القناة.

فقد عقد عرابى مجلسا عسكريا فى أواخر يوليه للنظر فى أمر القناة، فأجمع رأى لالمجلس على وجوب تعطيلها بحيث لا يستطيع الجيش الإنجليزى اجتيازها والوصول إلى الشاطئ الغربى منها، وخاصة الإسماعيلية. فلما عرف بذلك المسيو دلسبس أرسل إلى عرابى أن يمتنع عن قطع القناة، وأكد له كذبا فى تلغرافه "أن الإنجليز يستحيل أن يدخلو القناة.. يستحيل"، فانخدع عرابى بهذا التلغراف رغم تحذير إخوانه إياه ونصحهم له بأن لا يصغى إلى نصيحة دلسبس إذ ليس فى إمكانه أن يمنع دخول الإنجليز القناة أو يبر بوعده، ولا هو صادق فى نصحه، وإنما كان غرضه صيانة القناة من التعطيل، ولو ضحيت فى سبيل ذلك مصالح مصر وسلامتها.

وقد استمر على خداعه حتى وصلت البوارج الإنجليزية إلى بورسعيد لاحتلال القناة، فأرسل إلى عرابى تلغرافا آخر يقول فيه: "لا تعمل عملا ما لسد قناتى.. فأنى هنا ولا تخش شيئا من هذه الناحية إذ لا ينزل جندى إنجليزى واحد إلا يصحبه جندى فرنسى، وأنا المسئول عن كل ذلك"، وهنالك فقط شرع عرابى فى سد القناة، ومع ذلك كان أمره فى هذا الصدد

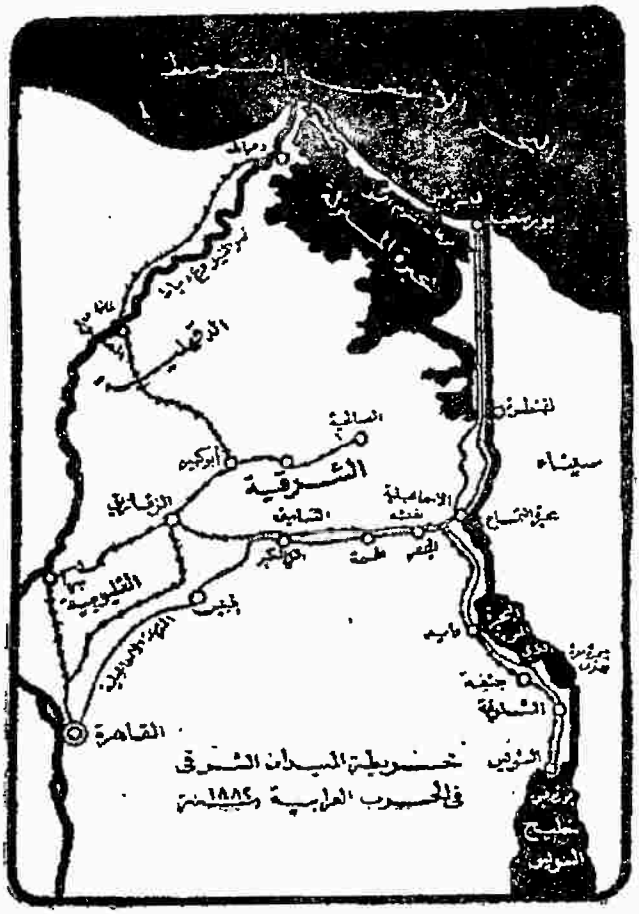

خريطة الميدان الشرقى

فى الحرب العرابية سنة ١٨٨٢م

منطويا على التردد والإبهام، فقد قال فيه: "وما فعله الإنجليز يبيح لنا سد الترعة الحلوة عن السويس وإذا تهدد القنال زيادة على ذلك بأعمال حربية فباتحاد سعادتكم مع سعادة رئيس عموم أركان حرب يجرى ما فيه صالحنا".

ولم يكد يصل هذا الأمر المبهم إلى راشد باشا حسنى قومندان خط الشرق حتى كان الإنجليز ق اقتحموا القناة.. وكان الحزم والحكمة يقتضيان بأن يبادر عرابى إلى سد القناة قبل أن تبدأ حركات الإنجليز العدائية من ناحية الشرق، لأن الإنجليز الذين خرقوا حرمة المعاهدات الدولية ونقضوا عهودهم فى مؤتمر الأستانة منذ ابتداء القتال بضربهم الإسكندرية ثم احتلالهم إياها لم يكن من المنتظر أن يحترموا حياد القناة فى قتالهم. أما عتماد عرابى على وعد دلسبس فى حماية القناة فأمر يدل على قصر النظر، وقد كان من عيوب عرابى فى ساعة الخطر التردد والأحجام، فكان خطوة فى مسألة القناة العامل الأكبر إن لم يكن العامل الوحيد لانتصار الإنجليز فى معارك الميدان الشرقى واحتلالهم العاصمة.

ومن عجب أن يصر عرابى على رأيه الخاطئ مع أنه كما يقول جون نينيه كان مقتنعا كل الاقتناع قبل نشوب الحرب بضرورة منع المرور من القناة وأنه قطع برأيه فى هذا الصدد إذ صرح للمستر كامرون مراسل جريدة الستاندراد بحضور المسيو نينيه قبل ضرب الإسكندرية بقوله: "اننا سنحترم القناة ما دام العدو يحترم استقلال بلادنا.. ولكن إذا نشبت الحب فإننا عند أول طلقة مدفع سنهدم القناة مؤقتا، وسأفعل ذلك آسفا لأنى عالم بأن القناة طريق تجارى محايد".

وقد كان هذا هو الوقت المناسب لسد القناة. فليت شعرى ما الذى جعله يعدل عن هذا الرأى الصواب ويمتنع عن سدها حتى احتلها الإنجليز؟

احتلال بورسعيد والإسماعيلية

كان أول عمل حربى للجنرال ولسلى عند وصوله إلى الإسكندرية هو تدبر الزحف على العاصمة من طريق قناة السويس. . ففى ظهر يوم ١٩ أغسطس أقلع الأسطول البريطانى من الإسكندرية بقيادة الأميرال سيمور، وكان مؤلفا من ثمانى مدرعات وثمانى عشرة بأخرة من بواخر النقل تقل معظم الجيش الإنجليزى بقيادة الجنرال ولسلى قاصدا بورسعيد، فبلغها صباح ٢٠ أغسطس. وأخذت السفن الحربية تقتحم القناة، ونزلت كتيبة من جنود الأسطول إلى بورسعيد واحتلوا المدينة دون مقاومة من الحامية، وكذلك احتل الإنجليز القنطرة والإسماعيلية فى هذا اليوم. ومنعت البوارج الإنجليزية مرور البواخر التجارية فى القناة، ومنع الأميرال هوايت من ناحية السويس دخول أية سفينة إلى القانة ابتداء من ١٩ أغسطس، ووضع فى مدخل القناة بارجة حربية تنفيذا لهذا المنع. وقد احتجت شركة القناة على خرق حرمة القناة فذهب احتجاجها سدى. وفى ٢٠ أغسطس احتل الأميرال هوايت "شلوفة" شمال السويس على القناة.

وكانت طلائع العرابيين وعددهم نحو ألفين ترابط فى "نفيشة" غربى الإسمايعلية وعلى بعد نحو ثلاثة كيلو مترات منها، فأطلقت البوارج البريطانية قنابلها عليهم، وكان هذا الضرب نذيرا بزحف الإنجليز من هذه الناحية. .

ووصل الجنرال ولسلى إلى الإسماعيلية يوم ٢١ أغسطس لتدبير حركات القتال فى الميدان الشرقى. وكان يصحبه الأميرال سيمور والأميرال هوبكنس. ووصلت على أثره بقية البواخر المقلة للجيش البريطانى، فنزلوا الإسماعيلية

كما وصل المدد من الهند إلى السويس. وبذلك انكشفت الجبهة المصرية من ناحية القناة، فى حين أنه لو سدت القناة فى بداية القتال لما استطاع الجنرال ولسلى أن يصل بجنوده إلى الإسماعيلية ويتخذها قاعدة للزحف، ولقضى عدة أشهر قبل أن يهاجم خطوط الدفاع فى الدلتا.

وفى يوم ٢٢ أغسطس وضح الإنجليز أيديهم على سكة الحديد بين الإسماعيلية والسويس وعلى ترعة المياه العذبة بين المدينتين..

ولما تم للإنجليز احتلال القناة رخصوا لشركة القناة بإدارة أعمالها السابقة وعادت السفن التجارية تجتاز القناة ويتبين من ذلك أن اعتراض شكلى كان الغرض منه منع العرابيين من سد القناة حتى لا يتعطل انتفاع الشركة منها وهكذا جعل الإنجليز من القناة قاعدة حربية سهلت لهم مهمة الزحف على مصر، ولولاها لما استطاعوا أن يصلوا إلى الإسماعيلية بحرا وأن يزحفوا منها على العاصمة من طريق التل الكبير والزقازيق، فوصول البوارج الإنجليزية إلى الإسماعيلية واتخاذهم إياها قاعدة زحفهم ما كان ليحدث لو لم تكن قناة السويس موجودة، وكذلك كانت القناة شؤما على مصر فى جميع أدوارها..

احتلال نفيشه

واحتل الإنجليز نفيشة بعد احتلالهم الإسماعيلية.. ولهذا الاحتلال أهميته لأن نفيشة هى أول محطة غربى الإسماعيلية ومنها تتفرع ترعة الإسماعيلية إلى فرعين أحدهما الذاهب إلى بورسعيد والثانى إلى السويس.

وقد سد العرابيون ترعة الإسماعيلية فى نقطة "المجفر" غربى الإسماعيلية ليمنعوا ورود المياه العذبة إلى الجيش البريطانى "فهاجم الجنرال ولسلى "المجفر" يوم ٢٤ أغسطس واحتلها بجنوده.

وتابع الإنجليز زحفهم فاستولوا على "المسخوطة" يوم ٢٥ أغسطس بعد معركة عنيفة دارت بينهم وبين العرابيين، وكان يقود الجيش المصرى فيها الفريق راشد باشا حسنى ووقع محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى أسيرا فى يد الإنجليز فكان أسره أكبر ضربة أصابت الدفاع الوطنى.

واستولى الإنجليز على المحسمة يوم ٢٥ أغسطس، وهى محطة تبعد عن نفيشة غربا باثنين وعشرين كيلو متر. وصارت المسافة بينهم وبين التل الكبير لا تتجاوز أربعة وعشرين كليو مترا، وقد استولوا فى المحسمة على سبعة مدافع كروب وكمية كبيرة من البنادق وعلى قطار من الذخيرة وكان الاستيلاء على المحسمة عملا حربيا على جانب كبير من الخطر، لأنه الخطوة الأولى التى اتخذها الإنجليز للوصول إلى معسكر العرابيين فى التل الكبير.. ثم احتل الإنجليز القصاصين يوم ٢٦ أغسطس دون تذكر، فصاروا على مسافة خمسة عشر كيلو مترا من التل الكبير.

عرابى فى الميدان الشرقى

كان لأسر محمود باشا فهمى واحتلال "المحسمة" وانكشاف نية الإنجليز فى الزحف على العاصمة من ناحية الشرق وقع شديد فى صفوف العرابيين. فبادر عراى إلى الانتقال إلى معسكر التل الكبير. وسار بالقطار من كفر الدوار ومعه جماعة من الضباط وطائفة من الحرس، وكان يصحبه عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية. فلما وصل القطار إلى الزقازيق خف للقائه جمع حاشد من العمد والأعيان وأرباب الطرق والموظفين، ونزل هنيهة بالمحطة، وجلس بكشك هناك، فاحتشد الناس للهتاف له وصاروا ينادون: "الله ينصرك يا عرابى. يا مولانا يا عزيز. أهلك عسكر الإنجليز. يا سيمور يا وش

القملة من قال لـك تعمل دى العملة" . وبعد أن جلس هنيـهة غادر الكشك وركب القطار وصار ينادى ويقول: "أنا لها أنا لها"

وسار القطار إلى التـل الكبير بين هتـاف المجتمـعين وصيـاحهم. . ولما وصل إلى التل الكبير أعد عارى لنفسه بالمعسكر خيمة سعيد باشا وإلى مصر السابق وكـانت من أفخم الخيام. وأقـام بها يخوطه الحرس والخـدم، وتشاور وأصحابه فـيما يجب عمله، وجـاء على باشا فهمى من الـقاهرة قود الألاى الأول من المشاة مـددا للجيش، ووضعـوا خطة القتـال التى استدعـاها تبدل الموقف. فاتفـقوا على مهاجمـة مواقع الإنجليز فى القصـاصين، وأرسلوا إلى طلبة باشا عـصمت فى كفر الدوار لكى يرسل لهم المدد من الرجـال والعتاد. فجاءهم عـيد بك محمد بألايه، وأحمـد بك عيد الغفار وعـبد الرحمن بك حسن بألايـات الفرسان. وجـاءهم من دميـاط خطر بك ومعـه أورطتان من العسـاكر السودانية، فـاستعد الجـيش المصرى لاتخاذ خطة الهجـوم، وكانت قوات الإنجـليز مـوزعة كـالآتى: الجنرال جراهام فى القـصاصـين، والجنرال دورى لو قائد الفرسان فى المحسمة، والجنرال ويليس فى المسخوطة.

وقعة القصاصين الأولى

هاجم المصريون مـواقع الإنجليز فى القـصاصين يـوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ بقيادة الفريق راشد باشا حسنى، وكان هجوما شديدا. . فاستولوا على المواقع الإمامية للإنجليز. ولكن الفرسـان البريطانيين بقيادة الجنرال "دورى" ما لبثوا أن كروا على المصـريين فأجلوهم عن هذه المواقع. وخسر الإنجليز فى هذه الواقعة ٨ قتلـى منهم ضابط و٦١ جريحا منهم عشرة من الضـباط وامتد فيها القتال إلى الليل.

موقف تركيا

قدمنا أن موقف تركيا منذ شبت الثورة العرابية كان منطويا على سوء النية والخطل فى الرأى، فقد أرادت أن تتخذ من هذه الثورة فرصة لاسترداد الاستقلال الذى نالته مصر. فأخذت ثغرى الفريقين المتخاصمين أحدهما بالآخر، فتظاهر تارة بتأييد الخديو، وطورا بتأييد العرابيين، لتكسب من وراء هذا الإغراء نفوذا وسلطانا، ولكنها فى الواقع لم تكسب شيئا وإنما استفادت إنجلترا من هذه السياسة الخرقاء..

وبينما كان الإنجليز يتقدمون فى داخل البلاد كانت المفاوضات ما زالت مستمرة بين اللورد دفرين سفير إنجلترا فى الأستانة والباب العالى للاتفاق على خطة إرسال الجيش العثمانى إلى مصر، وكانت إنجلترا تقصد من هذه المفاوضات إطالة الوقت وتعطيل إرسال جيش من تركيا حتى تقمع الثورة بجيشها فلا يبقى محل لمجئ ذلك الجيش، وقد تذرعت إلى إطالة المفاوضات باشتراطها عدة شروط وهى:

تحديد عدد الجيش العثمانى المزمع إرساله إلى مصر بحيث لا يتجاوز خمسة أو ستة آلاف جندى.

(٢) منعه من دخول مصر بطريق البر أو النزول إلى الإسكندرية.

(٣) عرض خططه الحربية على القيادة الإنجليزية.

(٤) التعهد بسحب هذا الجيش حين جلاء الجيش الإنجليزى عن مصر.

وقد رفضت الحكومة التركية هذه الشروط، فكان ذلك سببا فى تعطيل إرسال جيشها، ولو رضيت بأى شروط تضعها إنجلترا وبادرت بإرسال جيشها

لكان ذلك خيرا وأخف شررا من أحجامها عن إنفاذه، لأن مجرد وجود جيش تركى أو أى جيش آخر بجوار الجيش الإنجليزى يحول دون استقرار الأخير فى البلاد ويؤدى لا محالة إلى إجلاء الجيشين معا كما حدث حين أرسلت كل من إنجلترا وتركيا جيشا لإجلاء الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١، فإن وجودهما معا أدى إلى جلائهما عن البلاد فى ذلك الحين.

وقد أعلنت إنجلترا على لسان اللورد دفرين أنها لا تقبل اشتراك الجيش العثمانى مع الجيش الإنجليزى فى إخماد الثورة إلا إذا وقع الباب العالى على الاتفاقية المتضمنة شروط هذا الاشتراك.

وفى غضون مهزلة المفاوضات التى جرت فى هذا الصدد طلب اللورد دفرين من سعيد باشا الصدر الأعظم أن يعلن السلطكان عصيان عرابى وأن يقترن هذا الإعلان بالإتفاق على اشتراك الجيشين فى مصر، وأخيرا وقع الطرفان على هذا الاتفاق فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وهو يقضى بإرسال ثلاثة آف جندى عثمانى إلى بورسعيد، وفى الوقت نفسه أعلن السلطان عصيان عرابى فى منشور طويل نشرته صحف الأستانة يوم ٦ سبتمبر.

لم تكن إنجلترا تقصد بهذا التفاق احترامه وتنفيذه فإنها عجلت بإخماد الثورة قبل أن تتحرم تركيا إلى إرسال جيشها.. بل كان غرضها إذاعة إعلان السلطان عصيان عرابى أثناء زحفها، لتتخذ منه وسيلة لإضعاف قوة الجيش المصرى وإيقاع الفرقة والإنحلال فى صفوفه، وصرف القلوب عن تأييد عرابى فى القتال. ولو ترك السلطان وشأنه لما فكر فى إصدار هذا الإعلان لأنه فى خاصة نفسه لم يكن يعطف على الخديو توفيق، ولا كان يميل إلى تثبيت سلطته. ولكن السياسة الإنجليزية الحت وتهددت واستخدمت كل الوسائط ومنها الرشوة لدى رجال المابين حتى أصدر السلطان إعلانه المشئوم.

ولما هزم عرابى فى واقعة التل الكبير بادر اللورد "دفرين" إلى إبلاغ الباب العالى أنه بهزيمة العرابيين لم يعد ثمة موجب لإرسال جيش عثمانى، لأن الجيش الإنجليزى قد انتهى من مهمة إخماد الثورة!

فإعلان عصيان عرابى والحرب قائمة هو تدبير منطو على المكر والخبث، وضعته إنجلترا لإضعاف قوة المقاومة فى مصر وتمكين جيشها من احتلال البلاد، وهى التى طلبت من السلطان ذلك الإعلان كما تقدم بيانه.

وقد ابتهج الخديو وعهد إلى سلطان باشا توزيع نسخ من جريدة "الجوائب" التى نشرته، والاتصال بضباط الجيش المصرى لأطلاعهم عليه، ووزع عليهم منشورات بهذا المعنى، وتنقل سلطان باشا فى البلاد لدعوة العمد والأعيان إلى مساعدة الإنجليز، ولا جرم أحدثت المنشورات تأثيرا كبيرا فى حالة الضباط المعنوية.

وقعة القصاصين الثانية

فى صبيحة يوم السبت ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقعت معركة كبيرة بين المصريين والإنجليز، تعد أكبر وقائع الحرب العرابية.. هجم فيها المصريون بقيادة الفريق راشد باشا حسنى - المعروف بأبى شنب فضة - على مواقع الإنجليز فى القصاصين يريدون استردادها للمرة الثانية، واحتدم القتال نحو ثلاث ساعات ولكن المعركة انتهت بتراجع المصريين بعد أن كادوا يوقعون الجيش الإنجليزى.

وكان القائد العام لجيش المصريين هو الفريق راشد باشا حسنى وتقرر أن يتحرك محمود باشا سامى البارودى من الصالحية ليلا فيصل إلى خط القتال عند مطلع الفجر للإحلاق بيمنة العدو وقد عمل بترتيب الهجوم رسم سلمت

منه نسخة لكل أمير من القواد، وفى الثلث الأخير من ليلة ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب، فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل مكانه على خط النار، ولكن العدو كان عالما بما أستقر عليه الرأى إذا أطلعهم عليه الأميرلاى على يوسف خنفس (الخائن) فبادر الجيش المصرى بإطلاق المدافع، واحتدم القتال بين الجيشين؛ إما جيش الصاحلية بقيادة البارودى فإنه تأخر عن الميعاد المحدد له. ولما قرب من مكان الواقعة كان العدو متأهبا لقتاله، فأطلق عليه مدافعه قبل أن يصل إلى مكانه، فتشتت وولى الأدبار، فمنهم من عاد إلى الصالحية ومنهم من ذهب إلى معسكر رأس الوادى، وأما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش فقد ثبوا ثبات الأبطال حتى آخر النهار وجرح راشد حسنى برصاصة فى قدمه.. وجرح على باشا فهمى فى ساقه، وخصر كل من الجيشين خسارة كبرى من ضرب المدافع والبنادق التى كانت مقذوفها كالمطر فى الميدان. وكانت هذه الواقعة أشد حرب نشبت بين العرابيين والإنجليز إذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهما نادر المثيل.

ويقول جون نينيه عن هذه الواقعة: "إن إصابة القائدين الباسلين راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى فيها كانت خسارة كبرى منى بها الجيش المصرى لا تقل فى فداحتها عن أسر محمود باشا فهمى".

ويذكر المستر بلنت عن رواية المصريين له عن المعركة أن الإنجليز فوجئوا بهجوم الجيش المصرى، وكاد الدوق أوف كنوت يقع أسيرا، ولكن حدث نقص فى تنفيذ خطة الهجوم، وذلك أنه كان محمود باشا سامى البارودى أن يتحرك من الصالحية فى ألفى مقاتل ليلا ويهاجم فى الصباح ميمنة الإنجليز، ولكنه ضل الطريق، فلم يصل فى الميعاد ولم يشترك فى المعركة، وثمة نقص

آخر ذكره المستر بلنت وهو أن عرابى كان واجبا عليه أن يشترك فى هذه المعركة ولو فى مؤخرة الجيش إن لم يكن فى المقدمة، ولكنه جمد فى التل الكبير، ولم تظهر فى الميدان جميع قوة الجيش التى كان يجب استخدامها، وكان منعوامل الهزيمة خيانة الضابط على يوسف خنفس.

كانت هزيمة الجيش المصرى فى وقعة القصاصين الثانية ضربة شديدة كشفت الموقف الحربى ودلت على ضعف الجبهة المصرية أمام الهجوم الإنجليزى.. وقد ظهر الاضطراب على زعماء العرابيين وبخاصة عرابى ومحمود سامى البارودى، وبدأ اليأس يتسرب إلى قلوبهم. وأدرك عرابى بعد فوات الفرصة أنه لو سد قناة السويس عند ابتداء الحركات العدائية لما بلغ الإنجليز الإسماعيلية بهذه السرعة، وما تقدموا فى داخل البلاد بهذه السهولة.. فأخذ يعالج الموقف فى كثير من التردد واليأس، وبدأ بعد وقعة القصاصين فى إرسال الجرحى إلى العاصمة إذ أقتلهم القطر الخاصة إلى العباسية، ومنهم القائدان الباسلان راشد باشا حسنى، وعلى باشا فهمى. واستدعى على باشا الروبى قومندان موقع مريوط ليتولى قيادة جيش رأس الوادى. فحضر عصر يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢، وأخذ يتفقد مواقع الجيش فى التل الكبير أصبح بعد وقعة القصاصين هدف الإنجليز فى هجومهم.

معركة التل الكبير

تقع شرقى محطة التل الكبير على الضفة اليسرى لترعة الإسماعيلية هضبة تعلو السكة الحديد بثلاثين مترا وتمتد بإنحدار خفيف نحو "الصالحية" ونحو "القصاصين"، وكانت خطوط الدفاع المصرية فى "التل الكبير" تبتدئ

من السكة الحديدية، وتمتد بطول ستة كيلو مترات متجهة من الجنوب إلى الشمال. ويحمى معاقل الجند خنادق جافة عرضها من مترين إلى ثلاثة وعمقها متر أو متران. ووراء الخطوط الأمامية خطوط أخرى تمتد إلى معسكر التل الكبير الواقع على السكة الحديدية، ولم يكن عرابى قد أتم خطوط الدفاع قبل نشوب المعركة، ولم تكن ذاتها محكمة الوضع لأنها أقيمت على عجل، وليس بها العدد الكافى من الجند لصد هجمات الأعداء.

وكان الجيش المصرى فى التل الكبير كما قدره الجنرال ولسلى مؤلفا من ٢٤ طابورا وثلاثة ألايات من الفرسان وستة آلاف من البدو. وكان عرابى يشرف على حركات القتال.. ولكنه لم يتول القيادة الفعلية التى عهد بها الى على باشا الروبى، وبلغت مدافع هذا الجيش من ٦٠ إلى ٧٠ مدفعا ويقول المستر بلنت: "إن جيش عرابى بالتل الكبير لم يكن يدل على عشرة آلاف أو أثنى عشر ألف جندى، والباقون كانوا من المجندين الأحداث الذين لم يسبق لهم إطلاق بالتل الكبير بل كانوا فى كفر الدوار بقيادة طلبة باشا عصمت، أو فى دمياط بقيادة عبد العال باشا حلمى، وهؤلاء لم يشتركوا قط فى المعركة".

وكان من حسن التدبير أن يستدعى عرابى على الأقل الألاى المرابط فى دمياك لأنه كان يحتوى على خيرة الجند المدربين، ولكنه لم يفعل.. ولم يأت من هذا الألاى سوى أورطتين مع مسيس الحاجة إليه. وعهد عرابى بالقيادة فى معركة التل الكبير إلى على باشا الروبى، ولم يكن على حظ ما من الكفاية الحربية.. أضف إلى ذلك أنه كان إلى ما قبل المعركة قائدا لفرقة مريوط واستدعاه عرابى إلى التل الكبير بعد إصابة راشد باشا حسنى فى القصاصين، فحضر قبل فى تلك الناحية، ووضع الخطط الصالحة للدفاع.

وزحف الجنرال ولسلى على التل الكبير فى أحد عشر ألفا من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان ومعه ستون مدفعا، وكان الهجوم من الناحية الشمالية للتل الكبير إذ كانت أصلح الزحف من الجهة الجنوبية المكونة من أراض زراعية تخترقها الترع والأقنية وتعوق سير الجنود. واعتزم الزحف ليلا لكى يوفر على جنوده عناء السير فى شمس النهار المحرقة وسط رمال الصحراء وفى أرض مكشوفة. وقد رجح عنده الزحف فى الظلام ما لاحظه حين كان يستطلع مواقع المصريين فى التل الكبير من أنهم لا يضعون الطلائع أمام الاستحكامات إلا من الساعة الخامسة صباحا، وهذا نقص كبير فى الدفاع. فأراح ولسلى جيشه يوم ١٢ سبتمبر..

وفى مساء هذا اليوم تأهب للزحف، ولما جن الليل بدا الجيش الإنجليزى يتحرك من القصاصين فى منتصف الساعة الثانية صباحا، وكان الظلام حالكا. وأصدر الجنرال ولسلى تعليماته بأن تطفأ كل الأنوار أثناء السير، حتى لا يشعر العرابيون بزحفه. وكان يتقدم الجيش بعض ضباط الأسطول الذين لهم دارية بالاسترشاد بالنجوم لمعرفة خط السير فى الصحراء. ولكن هؤلاء لم يكن فى استطاعتهم الاهتداء إلى مسالك الصحراء، بل كان المرشدون الحقيقيون بعض عربان الهنادى ممن اشترى الإنجليز ذممهم واتخذوهم عيونا لهم وجواسيس.

ومن العجيب أن يقطع الجيش الإنجليزى المسافة بين القصاصين والتل الكبير - وهى تبلغ خمسة عشر كيلو مترا - دون أن تصادفهم طلائع المصريين، ولو كان الدفاع محكما!! فات عرابى أن يجعل لجيشه طلائع على مسافات بعيدة ينبئونه بحركات الجيش الإنجليزى، واستمر الإنجليز فى زحفهم

حتى مطلع الفجر وعندئذ صارت كتائبهم على مسافة ١٥٠ ياردة من التل الكبير. وقد فوجئ المصريون بالهجوم إذ كانوا نائمين بعد أن سهروا فى سماع ذكر أرباب الطرق، فاستيقظوا على صوت البنادق. ولم يكد هؤلاء يضربون نفير الحذر حتى أمر الجنرال ولسلى جنده بالهجوم.. فابتدأ فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحا، وكان على شكل نصف دائرة أحاطت بمعسكر العرابيين، فاقتحمت الجنود الإنجليزية الاستحكامات الأمامية، وأطلق رماتها القنابل والبنادق عليهم، وقتل منهم فى هذه الهجمة نحو مائتين قبل أن يصلوا إلى الخنادق.

ولكن الهجوم كان فجائيا شديدا، فاستولى الإنجليز على الاستحكامات الأمامية.. وبعد هنيهة هجوا على خط الاستحكامات الثانى، واتجهت فرقة منهم تجوس خلال الاستحكامات فنفتكت بنادقهم بالمصريين فتكا ذريعا، وهجم فرسان الجيش البريطانى بقايدة الجنرال دروري لو على ميسرة العرابيين متجهين صوب محطة التل الكبير، فأحدقوا بها. وأخذ المصريون على غرة فى الميمنة والميسرة، وصمد للدفاع الإيلان من السودانيين بقيادة الأميرلاى محمد بك عبيد قائدهم البطل محمد عبيد. واستبسل ايضا فى القتال آلاى من البيادة بقيادة أحمد بك فرج، وألاى عبد القادر بك عبد الصمد، وكذلك أبلى اليوزباشى حسن أفندى رضوان (الفريق حسن باشا رضوان فيما بعد) بلاء حسنا فى الوقعة إذ كان قومندانا للطوبجية. فلما فوجى المصريون بهجوم الجيش الإنجليزى اختل نظامهم.. لكن اليوزباشى حسن رضوان صمد للمهاجمين وأخذت مدافعه تصلى الإنجليز نارا حامية وكبدتهم خسائر جسيمة، وجرح هو فى تلك الوقعة. وقد أعجب الجنرال ولسلى ببسالته

وترك له سيفه احتراما له، ولم يزد عدد الجنود الذين اشتركوا فى المعركة على ثلاثة آف، أما الباقون فقد تولاهم الذعر فألقوا أسلحتهم ولاذوا بالفرار. ولم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة لم تزد خسائر الإنجليز فيها على ٥٧ قتيلا منهم ٩ ضباط و٤٨ صف ضابط وجنديا و٤٠٢ جرحى منهم ٢٧ من الضباط، أما خسائر المصريين فقد تراوحت بين ١٥٠٠ قتيل أو ٢٠٠٠، وغنم الإنجليز مدافع المصريين واستولوا على جميع مهمات الجيش وذخائره ومؤونته..

كانت معركة التل الكبير سلسلة فضائح انتهت بهزيمة الجيش المصرى، لم يحصل فيها قتال بالمعنى الصحيح إلا من ثلاثة آلاف من الجند. وكانت فيما عدا ذلك أشبه بمهزلة أو مأساة، فهى صفحة محزنة من تاريخ مصر الحربى والقومى، وقد خلت من البطولة التى كان يمكن أن تغير من مصير المعركة أو تخفف من غضاضة الهزيمة وتقوى روح المقاومة فى البلاد.

* * *